



جدلية الوطنية والمواطنة

هاجس الانتماء وحضور الهوية في الفكر الإصلاحى الباديسى

The Dialectic of Nationalism and Patriotism The Concern of National Affiliation and the Presence of Identity in the Reformist thinking of Ibn-Badis.

عبد العزيز العيادي*

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 - (الجزائر)

البريد الإلكتروني: bouzizlayadi70@gmail.com

تاريخ النشر

2022/04/16

تاريخ القبول

2022/03/15

تاريخ الإيداع

2022/02/27

الملخص: تهدف هذه الدراسة إلى استجلاء معاني وقيم الوطنية والمواطنة في المنهج الإصلاحى لابن باديس، وكيف مارسها تفكيراً سياسياً ودعواً واتخذها منهجاً تربوياً وتعليمياً وإصلاحاً مجتمعياً. ولتحقيق ذلك عمدنا إلى استخدام المنهج الوصفى؛ تحديداً لتجليات وتمظهرات الانتماء والهوية، وكذا المنهج التحليلي التأصيلي؛ بيانا للخلفيات الفكرية لابن باديس، ورصداً لمدى تجسيد ابن باديس لتلك المعاني والقيم فكرياً وممارسة، ومدى توفيقه فيها. وقد كانت النتيجة أنّ قيمتي الوطنية والمواطنة قد انصهرتا في فكره وتجسدتا في ممارساته حتى صارتا تمثلان أسمى معاني الانتماء وتعبّران عن جوهر الهوية.

الكلمات المفتاحية: الوطنية؛ المواطنة؛ الانتماء؛ الهوية

Abstract: This study aims at delving into the concepts and values of nationalism and patriotism in the reformist approach of Ibn-Badis, and how he practised them through his thinking on the levels of politics and preaching, as well as using them as an educational approach to the reforms of the society.

In order to achieve this, a descriptive approach has been used to outline the manifestations of the belonging and the identity. Besides that, the analytic root-tracing approach was used to demonstrate the thinking background of Ibn-Badis tackling the

* المؤلف المرسل

scope of applying those concepts and values in both his thinking and practice in addition to finding the extent of succeeding in that. The results show that patriotism and nationalism have been completely integrated in his thinking and manifested in his practice to the point where these two values became the ideal sense of belonging and the core of the identity.

Keywords: Nationalism; Patriotism; Belonging; Identity

مقدمة:

"الانتماء" باعتباره فلسفة في الفكر والتفكير، ومنهجاً في الإصلاح والتغيير، والهوية باعتبارها تعبيراً عن ذلك الانتماء، وتجسيداً لأبعاده سلوكاً وممارسة؛ موضوع يعتبر في الواقع قديماً في مضمونه، إلا أنه حديث ومتجدد في إثارته والبحث في مفاهيمه ودلالاته؛ ذلك أنه مازال إلى اليوم محلّ تساؤل وبحث ودراسة. خصوصاً في ظلّ كثير من التّحدّيات كالاحتلال والاستعمار، والعولمة، والإرهاب، وظاهرة الاغتراب، والثّورات والثّورات المضادّة، وغيرها من التّحدّيات التي كلّما تجددت على تنوّعها واختلاف أزمنتها وأمكنّتها، كلّما أضفت مزيداً من الضبابية والغموض حول هذا الموضوع "جدليّة الوطنيّة والمواطنة"، وحملت بالتّالي معها تساؤلات جديدة حول قيمة "الوطن" وسؤال "الهويّة" وقيم "الوطنية والمواطنة"، في أذهان أولئك المواطنين الذين أعوزهم الوعي السليم بالموضوع؛ إن على استكانة كسبية لتلك التّحدّيات المفروضة واقعاً، أو على إثر تقصير مجتمعيّ في ضبط وتفعيل آليات التّوعية بحقائق تلك القيم وترسيخ معانيها.

ولغرض إعطاء إضاءات حول قيم الانتماء و"الوطنية والمواطنة" تعبيراً وترسيخاً للهويّة، وتوضيح العلاقة بين مفهومي الوطنية والمواطنة، أحاول في دراستي هذه أن أسلك مسلكاً تطبيقيّاً، وأنحو منحىً عمليّاً؛ أجسّد فيه دلالات هذه القيم، وأضبط فيه أبعادها، من خلال أسى ما تلبّست به، وأعظم ما تمثّلت فيه وانطبعت به عندنا؛ إنّه فكر الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله وتجربته الإصلاحية، في موضوع وسمته بـ "جدليّة الوطنيّة والمواطنة؛ هاجس الانتماء وحضور الهويّة في الفكر الإصلاحي الباديسي".

وإنه لشرفٌ عظيم أن أبحث في فكر وحياة علم من أعلام هذا الوطن الحبيب ورمز من رموزه الخالدة؛ بل إنه من الحرج ومن الإثم ألا نتكلم عن تاريخ هذا الرجل الفذ وتجربته الإصلاحية، وبالأخص إذا كان الحديث عن هاجس "الانتماء" ومشكلة "الهوية" وإشكالية "الوطنية والمواطنة" في قاموس حياته وفكره ومنهجه الإصلاحى. وهو الذي ما فتى كثير من المغرضين يطعنون في انتمائه، ويقدحون في وطنيته، ويمسون بمواطنته، ويتهمون به في شرف هذه النسبة التي كان يعتز بها "الوطنية"، وإثارة القلاقل حول نبل الرسالة التي ضحى في سبيلها "المواطنة". لقد رُمي الرجل مرة بالعمالة لفرنسا، ومرة بالخنوع عن المطالبة بالاستقلال، وأخرى باستبعاد الفكر الثوري وعدم قبول الثورة وغيرها من الإفك الذي حيك حول هذا الرجل العلم، بغرض تشويه صورته، وطمس معالم رسالته وجهاده في صفحات تاريخ هذه الأمة المجاهدة الرائدة.

فما حقيقة هاجس الانتماء في تفكيره وما مدى حضور وتلازم قيم "الوطنية والمواطنة" في منهجه الإصلاحى؟ وكيف بدت العلاقة بين مفهومي الوطنية والمواطنة في فكره وتفكيره ومنهجه الإصلاحى التربوي والاجتماعي؟ وما أهمّ مظهرات الهوية وتجلياتها في ممارساته التربوية والتعليمية والدعوية والاجتماعية؟ وما أبعاد هذه القيم في فكر الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة والإصلاح في وطننا؟، كيف أصل لها فكراً، ومارسها سلوكاً وتنظيماً ومنهجاً إصلاحياً اجتماعياً كاملاً؟

هذا ما أودّ محاولة بيانه وتوضيحه؛ مساهمةً في ترسيخ الوعي السليم بالمعاني السامية لتلك القيم الخالدة، وإيقاداً لجذوة هاجس الانتماء الذي انطفأ في نفوس شبابنا، وإذكاءً للروح الوطنية وواجب المواطنة الذين خفت بريقهما في قلوب وعقول أبنائنا إثر هذه التحديات العاتية في ظلّ عولمة إعلامية لا ترحم، وعرفانا بالجميل لرجل أمة، وإحياءً لصفحات مشرقة من تاريخه، في هذه المباحث الثلاثة:

- مفهوم "الوطنية والمواطنة" - الأسس الفكرية عند ابن باديس وموقع مسألة الهوية الوطنية منها - التربية الوطنية وأبعاد الانتماء والمواطنة في حياة ابن باديس ومنهجه الإصلاحيّ.

1. مفهوم الوطنية والمواطنة

الوطنية والمواطنة مأخوذتان من أصل لفظ "الوطن"؛ والذي يعني تلك البقعة الجغرافية المحددة في إطار حدود جيوسياسية معلومة تُعرف بالدولة في عرف الاستعمال السياسي الحديث، يسكنها جماعة من الناس يسمّون بالمواطنين يكفل لهم هذا الوطن منافع ومكتسبات، ويفرض عليهم - بحكم الانتماء - واجبات والتزامات. فالوطن يؤمّن لهم الحياة الاجتماعية الآمنة والأمنية الكريمة، ويؤمّن لهم معاشهم وصنعتهم وحرّيتهم وكفّة المكتسبات الأخرى، ومنها الكرامة وعزّة النفس والتّعليم وتوفير الخدمات الصحيّة وغيرها. وهذه المكتسبات يجب أن تقابلها واجبات والتزامات كاحترام رموزه وتقديس مقومّاته والعمل على ازدهاره والتّقاني في خدمته والتّضحية في سبيل الدفاع عنه (عمارة، 1998، ص193؛ أبو دف، 2004، ص248؛ غلاب، 1998، ص56).

وإذا عدنا إلى لفظي "الوطنية والمواطنة"، نحسّ في الوطنية معنى الانتساب والانتماء، فهي شعور بالارتباط الوثيق وتعلّق بمكوّنات هذا الوطن ومقومّاته الأساسية. وأمّا المواطنة فنحسّ منها معنى المفاعلة مع متطلّبات هذا الوطن، فهي نوع من الممارسة والسلوك والتّصرّفات.

لذلك ذهب بعضهم إلى أنّ الوطنية هي النظرية العامّة للمواطنة، وما المواطنة إلّا أداة لتطبيق هذه النظرية أو الفكر العام.

فالوطنية عنده تحمل معاني الانتماء الوطني والتّعامل الاجتماعيّ وعطاء المنتمي واحترامه للنّظام والقانون واحترامه لحرّيات الآخرين ونصرة أبناء وطنه والدّفاع عن الوطن. وعليه فالوطنية بهذه المعاني تعني ذلك الانتماء الوجداني لمكان الوطن الذي

يعيش فيه الانسان أو ولد فيه أو انتمى إليه بالجنسية، وجميع هذه الصور تؤطرها العاطفة للوطن وحبّه له والقتال من أجله، بمعنى أنّ الوطن مقدّس في روحه ووجدانه، ويفديه بنفسه وبما يملك.

وأما المواطنة التي يجب أن يتحلّى بها المواطن فهي مجموع أفعاله وتعامله مع المجتمع إظهاراً لخدمته وولائه له والمحافظة عليه وعلى تقدّمه، فهي ترجمة فعلية للعاطفة التي يكنّها الإنسان لأرضه، وهي الحالة المادية التي يؤدّيها الإنسان تطبيقاً لنظرية الوطنية (قطب، 1403هـ، ص554). وقد تكون هناك عناصر يجب أن يتحلّى بها المواطن، والتي تدخل كجزء من مواطنته، وتكون تلك الأسس التي تدخل في تقوية مجتمعه ورفقته ومن هذه العناصر نذكر منها الأبرز وهي التواضع والاحتشام والأمانة والاستقامة والآداب والفضيلة والنخوة والشجاعة. وهذه العناصر جميعها يجب أن تطفو على تصرفات المواطن لإظهار حسن مواطنته، بل يجب أن تكون هذه العناصر هي السلوك اليومي له من أجل رفعة الوطن والمجتمع (بن شبيب، 2017م).

وعليه فالوطنية شعور والمواطنة ممارسة، والوطنية حبّ ووفاء بينما المواطنة قبول (برضا أو بغيره)، والوطنية حرارة وانفعال وجداني أما المواطنة فهي سلوك وتصرفات، والوطنية ارتباط عاطفي بالأرض والمجتمع بينما المواطنة ارتباط عملي، والوطنية حسّ قلبي ضميري داخلي أما المواطنة فهي سلوك فعلي ظاهر، والوطنية لا تعدّد فيها ولا تبدّل أما المواطنة فهي التكيف والمرونة بما تعنيه من تغيير وتبدّل.

إن الانسان مفطور على الولاء للكيان الصغير أو الكبير الذي يجد ذاته فيه، ويجد فيه مصالحه الذاتية. فالفرد في إطار الأسرة لديه انتماء فطري، أي وجد نفسه قد سمّي باسم معيّن ليس له فيه خيار، ووجد أنّ له أباً وأماً ليس له فيهما خيار، ومع ذلك فإنّه يقبل الاسم والانتساب للأبوين. ولكنّ هذا الانتساب يتحوّل إلى انتماء وحبّ ووفاء، لما وجد مصلحته الذاتية تتحقّق من جرّاء هذا الانتساب ووجد فيه الدّفء والحبّ والحنان. وعندما

لا يجد كلّ هذا في انتسابه، فإنّه سرعان ما يهجر هذه الأسرة وقد يتتكرّر لها. وهكذا الحال في الانتماء إلى الكيانات الأكبر كالوطن، فالوطن كلّما لَبَّى طموحات أفرادهِ ووفّر لهم الأمان، ووطّد معاني المواطنة وأذكى روح الوطنية، وكلّما قصّر اهتزّت أسوار المواطنة وخفت بريق الوطنية.

وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأنّ الوطنية من دون مواطنة قيمة سلبية؛ فإنّ تكون وطنياً ولا تؤدّي واجبات مواطنك، ولا تعترف بما يمليه عليك وطنك من التزامات، أو لا تقدّر ما يبذله لك من مكتسبات واستحقاقات. هذا كلّهُ ينمّ عن ضعف في مشاعر الوطنية وفتور في قيمة الولاء والوفاء للوطن. ويبدو هذا جلياً حينما يتعرّض الوطن إلى تحدّيات طارئة؛ إن كانت خارجية قد تشحن الحسّ الوطني وتنميّه جرّاء ردّة فعل فطرية يحسّ معها المواطن بالخطر الذي يهدّده في أمنه ومصالحه الدّائمية، فيستنفر كلّ قواه، ويتناسى كل آلامه وأحزانه ويضع كل معاناته وراء ظهره، ليضع نفسه مشروع فداء للوطن. وقد لا يتحرّك الحسّ الوطني لدى المواطن لشدة ضعفه ووهنه، فيفكر في العمل ضدّ الوطن بالتعاون مع الأعداء في الخارج.

وإن كانت داخلية كتحدّي الفقر والغلاء والبطالة والانتماءات الحزبية والولاءات المصلحية للأشخاص وحرية الاختيار السياسي وحرية التعبير عن الرأي وغيرها من التحدّيات الداخلية الكثيرة؛ فإنّها كثيراً ما تُضعف الحسّ الوطني إلى مستويات متدنّية، قد يفكر معها البعض في الرّحيل عن وطنه والتّخلّي عن مواطنته ليجتث عن ضالّته في وطن آخر.

وكذلك يمكن القول بأنّ المواطنة من دون وطنية قيمة سلبية أيضاً، بل وأسوأ من الأولى؛ ذلك أنّ أدائك لواجباتك، وتعاملك مع بني وطنك، لن يكون نابعاً عن ولاء ولا صادراً عن حبّ، وإنّما هو نوع من السلوك المفروض المقطوع عن كلّ مشاعر الرّضا والرّغبة في خدمة من يشاركوك المواطنة. الشيء الذي يؤدّي حتماً إلى ضعف مردود

المواطنة، وقلة الاستجابة لما تمليه من التزامات. ويبدو هذا جلياً عند تعرض الوطن لتحديات خارجية أو داخلية، إذ قد يبيع مثل هذا المواطن وطنه بعرض من الدنيا قليل عند أول إغراء يُعرض عليه، وقد يهجر وطنه لأدنى مضايقة تعرض له دون أن يشعر بندم أو نقص.

2. الأسس الفكرية عند ابن باديس وموقع مسألة الهوية الوطنية منها

شاعت الأقدار أن يُبعث الشيخ عبد الحميد بن باديس في واقع صعب ومأساوي يعيشه الشعب الجزائري، في ظلّ استعمار بغض؛ مهمته تشويه معايير الانتماء، وطمس ملامح الهوية، وتغيير معالم الوطنية الجزائرية، بقصد خلق مواطنة جديدة يُعتمد عليها في بناء شخصية تستجيب للاندماج الكليّ والذوبان السريع في مقومات الغاصب المحتلّ. فعمد أول ما استولى على الجزائر عام 1830م عسكرياً إلى تعزيزه بغزو ثقافيّ محكم، كان يسعى من ورائه لتجريد الشعب من أهمّ وأخطر سلاح يؤسّس للهوية الوطنية وينشئ الانتماء والمواطنة؛ إنّه "الشخصية القومية".

قضى المستعمر إبان دخوله على معظم مراكز الثقافة والتي تتمثل في المدارس، والجوامع، والزوايا ونهب التراث العربي الإسلامي الذي عثر عليه في المكتبات الجزائرية (كتب-وثائق-مخطوطات). فضلا عن المكتبات والكتب التي أحرقتها وبعثرها (رحال، دت، ص 21).

كما قام بمصادرة معاهد التربية والتعليم، وحولها إلى معاهد فرنسية، وجعل التعليم فيها باللغة الفرنسية وحدها، ومنع تدريس اللغة العربية بقصد القضاء عليها. والغريب أنّه أصدر قانون "شوتان" "Chautemps" سنة 1938م الذي اعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر (سلوادي، 1984م، ص 29-30 ؛ رحال، ص 21).

وقد اعترف "الدوق دومال" "Daumal Dauk" الوالي العام للجزائر بالاعتداء على مراكز الثقافة العربية في تقرير له إلى حكومة باريس فقال: "قد تركّزنا في الجزائر،

واستولينا على المعاهد العلمية وحولناها إلى دكاكين، أو ثكنات، أو مرابط للخليل، واستحوذنا على أوقاف المساجد والمعاهد". وقد كانت أولى توصيات قادة الاحتلال في باريس لجيشهم الزاحف منذ بداية الاحتلال: "علّموا لغتنا، وانشروها حتى تحكم الجزائر، فإذا حكمت لغتنا الجزائر فقد حكمناها حقيقة". وجاء في تقرير لأحد المسؤولين الفرنسيين: "بناء مدرسة أفضل من فيلقين لإقرار الأمن" (رحال، ص 21).

ونتيجة لمحاربة الاحتلال للثقافة بصفة عامة، والثقافة العربية والإسلامية بصفة خاصة، سادت الأمية بين أفراد الشعب الجزائري حتى أصبحت بعد قرن وثلاث من الاحتلال تشكّل: 94.9% بين الرجال و 98.4% بين النساء.

فالاستعمار أسند للمدرسة مهمة القيام بتحطيم اللغة العربية، والثقافة الإسلامية، ونشر نوع من التعليم الفرنسي يخدم في الأساس هذا الهدف، ويعمل على تحويل المجتمع الجزائري في المدى البعيد من مجتمع مناهض للاستعمار، إلى مجتمع راض عن الوضع الاستعماري لبلاده، ولديه القابلية للفرنسة، والاندماج في مجتمع دولة الاحتلال، وبذلك تتمكّن فرنسا من السيطرة المطلقة والدائمة على الجزائر، وبسط نفوذها على الجزائر إلى الأبد.

وعلى العموم يمكن إجمال الخطوط العامة لسياسة فرنسا التعليمية في الجزائر:

- محاربة اللغة والثقافة العربية محاربة عنيفة لا هوادة فيها
- فرنسة التعليم في جميع المراحل
- اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر.
- محاولة تشويه تاريخ الجزائر في ظلّ العروبة والإسلام، بقصد إلقاء ظلال من الشكّ على انتماء الجزائر العربي الإسلامي، ومن هنا انحصر اهتمام علماء التاريخ والآثار الفرنسيين في البحث عن تاريخ الجزائر تحت الحكم الروماني، وفي عهد الاستعمار الفرنسي فقط، ضاربين صفحات عن تاريخها الطويل

المشرق في ظل العروبة والإسلام، وكان الغرض من ذلك هو محاولة إقناع الجزائريين بأن بلادهم فرنسية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها. (سلوادي، ص 28-30 ؛ رحال، ص 22)

في ظلّ هذا الوضع يُبحث ابن باديس، ويألو على نفسه ألا يخمد له نفس وألا يهدأ له بال حتىّ يحْيي معالم الشخصية الجزائرية في الجزائريّ، ويذكّي فيه روحها وقيمها. فعمد إلى إيجاد جيل جديد؛ جيلٍ منزّه التفكير من أذاليل الاستعمار، وقد سلك المسلك العلمي الحكيم لذلك، وهو مسلك التربية والتعليم، فتصدّر للتعليم حوالي سنة 1914م، وعمره دون الخامسة والعشرين، فجمع عليه عشرات من الشبّان المستعدّين، فعلمهم وربّاهم ونفخ فيهم من روحه. (رحال، ص 23).

وكان يؤثّر التربية على التعليم، ويحرص على غرس الفضائل في نفوس تلامذته قبل غرس القواعد الجافة في أدمغتهم، ويدربهم على أن ينهجوا نهجه في العمل للعروبة والإسلام (الزبير رحال، ص 23). وأسّس بناءه هذا على أسس أربعة تصبّ كلّها في دائرة بعث روح الانتماء الوطني، وخلق مواطن ذي هويّة صحيحة سليمة؛ يُعتمد عليها في تحقيق الانعتاق من قيد مستعمرٍ خبيث. وهذه الأسس هي:

1.2 إحياء روح الانتماء إلى الإسلام والوعي به.

كان ابن باديس يعتبر الإسلام هو الأساس الذي يجب أن تقوم عليه نهضة الجزائر المعاصرة ويبنى عليه كلّ عمل للجزائر، والنّهج الذي يجب أن يسير فيه كل من يتولى قيادة ناحية من نواحي سيرها في الحياة، وكل من حاد عنه قولاً أو عملاً فإنه يعدّ خائناً للأمة، ويجب أن يُعامل بما يستحقّ الخائنون.. وكان يرفض ما يسمّيه الإسلام الوراثي وكرّس حياته لمواجهة كل أشكال التّدنّ الوراثي المشحونة بالخرافة والبعيدة عن جوهر الإسلام "لأنّ الأمم لا تنهض إلّا بعد تنبّه أفكارها، وتفتح أنظارها، والإسلام الوراثي مبنيّ على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر"..(ابن باديس، 1983، ص 18 - ابن باديس،

1985، ج4، ص 123-124)، ولذلك وجّه حرا به ضدّ كلّ من يرفع الشعار المنحرف "اعتقد ولا تنتقد" (ناصر، 2007، ص97).

وكان في كلّ مرّة يتكلّم فيها عن الإسلام، يذكر أنّه واجه حرباً من الاحتلال، يبتغي بها تشويبه وطمس معالمه فيقول: "حروب فيكم الإسلام حتّى ظنّ أنّ قد طُمست فيكم معالمه، وانتزعت منكم عقائده ومكارمه، فجئتم بعد قرن — عند قيام النهضة الإصلاحية — ترفعون علم التوحيد، وتتشرون من الإصلاح لواء التجديد، وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، لا كما حرّفه الجاهلون، وشوّهه الدجالون، ورضيه أعداؤه" (ابن باديس، 1983، ص 13). ثمّ بيّن أنّه لا حياة إلّا في ظلّ الإسلام فقال: "الإسلام هو الذي فطرنا عليه الله بفضله، علّمنا أنّه دين الإنسانية الذي لا نجاه لها ولا سعادة إلّا به، وأنّ خدمتها لا تكون إلّا على أصوله، وأنّ إيصال النفع إليها لا يكون إلّا من طريقه. فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا — نكرسها — على خدمته، ونشر هدايته، وخدمة كلّ ما هو بناحيته وبسبيله، فإذا عشت له فإنّي أعيش للإنسانية؛ لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها، وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها، ما كنّا لنكون هكذا إلّا بالإسلام" (ابن باديس، 1985، ج4، ص 112 ؛ سلوادي، ص143) وإذا عاش ابن باديس مسلماً في إنسانيته، فقد عاش عربياً في لسانه.

2.2 النهوض بالعربية وحمل النفوس على الاعتزاز بها:

لقد كان رحمه الله حريصاً أشدّ الحرص على تعليم اللغة العربية والنهوض بفنونها، لأنّه كان يعلم أنّ اللغة العربية هي اللغة الوطنية والقومية للمجتمع الجزائري، بل وتعدّ مقوماً أساسياً للشخصية، كما أنّ لها على الأمة الجزائرية حقّين أكيدتين؛ كلّ واحد منهما يقتضي وجوب تعلّمها والاعتزاز بها، فكيف إذا اجتماعاً؟:

الأول كونها دين الأمة بحكم أن الأمة مسلمة، كونها لغة جنسها بحكم أن الأمة عربية الجنس.. ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا. كما أن اللغة العربية هي الرابطة التي تربط بين ماضي الجزائر المجيد، وحاضرها الغرّ، ومستقبلها السعيد.. فهي بالتالي تُعتبر من أعظم ركائز الهوية الوطنية.

ذكر ابن باديس اللغة العربية مرة؛ فبين أنها استهدفت كما استهدف الإسلام — كيف لا وهي الطريق للحياة في ظلّه — غير أن هذا ما نفع فرنسا، حين عادت نخوتها في النفوس، واستعاد الشعب مشاعر الاعتزاز بها، فقال: ".. حوربت فيكم العروبة حتى ظنّ أن قد مات منكم عرقها ومُسَخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلبلكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر، وتهدر خطباؤكم بشقاشقها — بأصواتها — فتدكّ الحصون والمعقل، ويهزُّ كُتّابكم أقلامها فتصيب الكلى والمفاصل.." (ابن باديس، 1983، ص 13).

وقد قال هذا الكلام بعدما أثاره قانون الثامن مارس المشؤوم، الذي أصدره مرسوم حكومي فرنسي عام 1938م، يحكم بإدماج الشعب الجزائري في فرنسا.. ثم أعقب ذلك نشيده العظيم الذي كذب فيه خبر موت الهوية الوطنية والشخصية الجزائرية، وأعلن فيه استحالة إدماجه وابتلاعه وذوبان شخصيته وذهاب ريعه (ابن باديس، 1985م، ج4، ص119)...

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

أو رام إدماجا له رام المحال من الطلب

وقد يظنّ البعض أن ابن باديس مادام متعصبا للعربية مفتخرا بها، فإنه يمقت الأمازيغية أو يتكرّر لها، وربما حاربها، فهو لم يتكلّم عنها كواحد من شعاراته... وهذا خطأ شنيع في حقّ هذا الرجل الوطني حتى النّخاع.

إنّ التّصبّب للعربية بالنّسبة لابن باديس دين ووطنية، وأما الأمازيغية فانتماءً وطنيًّا، لا ينبغي التّكرّر له، ولا يمكن التّصلّ من تبعاته ولا الانعتاق من جذوره.. لقد كتب مقالا في الشّهاب تحت عنوان "ما جمعته يد الله لا تفرّقه يد الشّيطان" - مشيرا به إلى السياسة الفرنسية في التّفرة بين الشعب الجزائري على أساس العرق - قال فيه: "إنّ أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا، ثمّ دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشّدّة والرّخاء، وتولّف بينهم في العسر واليسر، وتوحّدهم في السّراء والضّراء، حتّى كوّنت منهم في أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا، أمّه الجزائر وأبوه الإسلام". هذه هي حقيقة الانتماء التي تحكم هذا الشعب على هذه الوحدة التّرابية "الجزائر" (طالبي، 1968، ج3، ص 483 ؛ سلوادي، ص 218).

3.2 بناء الهوية الوطنية في النفوس وغرس حبّ الوطن فيها وإعلان الولاء الصادق له:

إنّ مسألة "الوطنية" هي لبّ فكر ابن باديس، هي لحمته وقاعدته التي ينطلق منها ليعود إليها.. إنّ قضية الوطن بالنّسبة إليه قضية جوهريّة، فإحياءه للدين وبعثه للعربية هما وسيلتان لبناء مقومات هذا الوطن وصياغة هويّته الشّخصيّة من جديد، بتخليصه من ضياعه، وبعثه بعد موته، ودفعه إلى مسرح الأحداث، ليثبت وجوده، ويحقّق كيانه، ويستعيد عزّه ومجده، ويصون كرامته وشرفه، ويصنع لنفسه مكانة بين أمم الأرض..

لذلك كان همّ ابن باديس أن يُغرس حبّ الوطن في النفوس، وتُذكى فيها جذوته، وتُحرّك فيها نخوته، وتُصقل فيها حقيقته، وتُبنى فيها ولاءاته.. قال في بعض مقالاته: "حبّ الوطن من الإيمان) كلمة تجري دائما على ألسنة المسلمين، لأنّ معناها صحيح ثابت في الإسلام.. من الإيمان أن تحبّ من أحسن إليك، ومن أحسن إليك مثل وطنك؟.. منه تغدّى أبوك وأمّك، فتكوّن الدّم الذي كنت منه نطفة فعلاقة فمضغة ثمّ خلقا آخر.. ثمّ تغدّيت من دمها ولبنها.. ثمّ تغدّيت منه أنت الآخر، فهو بترابه ومائه وهوائه ونباته

وحيوانه أصل تكوينك، ومادة غذائك، ومسرح طفولتك وشبابك.. كيف تكون مؤمنا إذا لم تحبّ هذا المحسن العظيم؟" (ابن باديس، 1994، ج6، ص203). أي هذا الذي يحسن إليك كيف تطاوعك نفسك لأن تسيء إليه؟.. إنها كلمات كالتساهم النافذة..

وتكلم بصراحة عن الجزائر فقال: "أمّا الجزائر فهي وطني الخاصّ، الذي تربطني بأهله روابط الماضي والحاضر والمستقبل.. وتفرض عليّ تلك الروابط لأجله - كجزء منه - فروضا خاصّة - التزامات - وأنا أشعر بأنّ كلّ مقوماتي الشخصية مستمدّة منه مباشرة، فأرى من الواجب أن تكون خدمتي أولّ ما تتّصل بشيء تتّصل به مباشرة، فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أولّ ما تتّصل بشيء تتّصل به مباشرة. وكما أنّي كلّما أردت أن أعمل عملا وجدنتني في حاجة إليه؛ إلى رجاله وإلى ماله وإلى حاله وإلى آلامه وإلى آلامه، كذلك أجدني إذا عملت قد خدمت بعلمي ناحية أو أكثر ممّا كنت في حاجة إليه. هكذا هذا الاتّصال المباشر أجده بيني وبين وطني الخاص في كلّ حال وفي جميع الأعمال. وأحسب أنّ كلّ ابن وطن يعمل لوطنه لا بدّ أن يجد نفسه مع وطنه الخاص في مثل هذه المباشرة وهذا الاتّصال.." (ابن باديس، 1985، ج4، ص112). نعم إنّها وطنية صادقة، وبالضرورة تؤدّي إلى مواطنة مستجيبة..

4.2 العناية بالتاريخ الحقيقي للأمة وربط الأجيال به وترسيخ معاني الانتماء إليه:

اعتنى الشيخ عبد الحميد عناية بالغة بتدريس التاريخ وتلقيه لتلاميذه في مدارسهم، كما اهتمّ بنشره وتوسيع الثقافة به عبر الصّحف والمجلّات، بعثا لحياتهم واعتزازا بتاريخهم، واقتداء بأجدادهم الذين بنوا حضارة لا مثيل لها.

ويعتبر التاريخ الإسلامي والعربي مقومًا من مقومات الشخصية الجزائرية، لكونه يمثّل شعور الأمة وذاكرتها ووعيتها بكيانها.

ولقد شنّ الاستعمار على التاريخ حربا عنيفة، ومنع تدريسه لأبناء الجزائريين، بقصد إضعاف الشخصية واتخذ لذلك عدّة إجراءات أبرزها (رحال، ص31 - 32):

- ركّز علماء التاريخ والآثار الفرنسيّون نشاطهم وأبحاثهم حول التاريخ الجزائري في العهد الروماني قبل الإسلام، والفرنسيّ إبّان الاحتلال، وغطّوا على تاريخ الجزائر والآثار التاريخية للجزائر في العهد الإسلاميّ، والقصد من ذلك هو إفهام الجزائريّين بأنّ بلادهم فرنسيّة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ولا شيء غير ذلك، وبالتالي ليست هناك شخصية قومية للجزائر لا في ماضيها، ولا في حاضرها، ولن تكون في المستقبل.
- اعتبار الفتح العربيّ الإسلاميّ للجزائر منذ القرن الأوّل الهجريّ بمثابة استعمار عربيّ للجزائر، وبالتالي الحكم على تاريخ الجزائر في ظلّ العروبة والإسلام بأنّه لا يعدو أن يكون تاريخ احتلال عربيّ للجزائر، دام ثلاثة عشر قرناً، وأنّ فرنسا هي التي حرّرت الجزائر من هذا الاستعمار في العصر الحديث.
- كان الأطفال الجزائريّون في مدارس الاحتلال يدرسون في مادّة التاريخ أنّ بلادهم في القديم تسمّى "الغال" "Lagaul" وكان أجدادنا يسمّون "الغاليّين" "Les gaulois"، والقصد من هذا هو مسخ وتشويه التاريخ الإسلامي والعربي، لينشأ أبناء الجزائر وهم يعتقدون منذ الصّغر، بأنّ أصل أجدادهم ينحدر حقيقة من "الغاليّين" في جنوب فرنسا وليس من العرب في شبه الجزيرة العربية، وبالتالي يصبحون أسهل انقيادا وأسرع استجابة لقبول سياسة الفرنسة والتّصير والإدماج، وهي السّياسة التي تهدف لمحو الشّخصية محو كاملاً.
- وخلاصة القول فإنّ التاريخ يعتبر حقيقة من المقوّمات الاستراتيجية الخطيرة في بناء الكيان الوطني للشعب أو هدمه، ولذلك تركّزت جهود الشيخ ابن باديس بتدريسه والاعتناء به وترسيخه، في حين تركّزت جهود الاحتلال بالمسخ والتّشويه تارة، وبحرمان الجزائريّين من دراسته والاطّلاع عليه تارة أخرى.

3. التربية الوطنية وأبعاد المواطنة في حياة ابن باديس

إنّ روحاً مفعمة بالوطنية فكراً وبقينا، متشبعة بقيمها ومبادئها إحساساً ووجداناً، مستمسكة بمقوماتها حباً وإخلاصاً، لا بدّ أن تكون مدمنة في ولائها الصادق للوطن، مخلصاً في وفائها الكامل لمقوماته ورموزه، معطاءة في بذلها كلّ غالٍ ونفيس له ولأجله، سخيّة في خدمتها له دون انتظار العوض منه؛ إنّها المواطنة المستجيبة التي أوصى بها الأنبياء، ودعا إليها الحكماء، وتصورها الفلاسفة النجباء، وتغنّى بها الشعراء، ومات لأجلها الشّهداء فحازوا بفضلها مراكز الأولياء؛ وكان منهم الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله.

على الرّغم من أنّ الفترة التي ولد فيها وعاشها ابن باديس هي الفترة التي فقدت فيها الجزائر سيادتها، وانتزعت منها حرّيتها، إلّا أنّ ابن باديس عاش مواطنته بأكمل معانيها؛ سلوكاً شخصياً وعملاً تنظيمياً داخل فئات الشعب كلّها. فأدّى كلّ الالتزامات التي تحتمّها عليه انتماؤه ومواطنته، وتقرضها عليه هويّته ووطنيته؛ فكان أسمى مثال للرجل المواطن الوطني الصّالح، المحبّ لوطنه، المخلص في الولاء له، المجتهد في خدمته، المستبسل في الدّفاع عنه، المضحيّ لأجله بكلّ غالٍ؛ وأيّ شيء يغلى على الوطن؟! وقد تجلّى انتماؤه وظهرت مواطنته في مجالين هما: الممارسة التنظيمية، والممارسة السلوكية (الشخصية)

1.3 الممارسة التنظيمية

ونقصد بها المجالات التي اهتم بها ابن باديس، وأولاهها رعايته، وركّز عليها نشاطه، ليؤطرّ بها المواطن الصّالح، الذي يُعتمد عليه في صنع غد مشرق لوطن جريح. فاتّجه إلى الأسرة، والجامع والمدرسة، والنادي..، ثمّ أنشأ الجرائد والصّحف، وفي النّهاية أسّس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

1.1.3 الأسرة: الأسرة هي الأساس الأول في تربية الإنسان وتكوين شخصيته، فهي

البيئة الطبيعية التي تتعهد الإنسان بالرعاية والعناية منذ الولادة.

وقد أشار الشيخ عبد الحميد إلى أهمية الأسرة بقوله: "البيت هو المدرسة الأولى، والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتدين الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتها في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن" (طالبي، ج4، ص201).

ثم يبين السبيل إلى تكوين الرجال فيقول: "إذا أردنا أن نكون رجالاً، فعلينا أن نكون أمهات دينيات، ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليماً دينياً، وتربيتهن تربية إسلامية، وإذا تركناهن على ما هنّ عليه من الجهل بالدين فمحال أن نرجو منهن أن يكون لنا عظماء الرجال، وشر من تركهن جاهلات بالدين إلقاءهن حيث يُربى تربية تنفّرن من الدين، أو تحقره في أعينهن فيصبن ممسوخات لا يلدن إلا مثلهن، ولأن تكون الأم جاهلة بالدين محبة له بالفطرة تلد للأمة من يمكن تعليمه وتداركه، خير بكثير من أن تكون محتقرة للدين، تلد للأمة من يكون بلاء عليها وحرباً لدينها، فنوع تعليم البنات هو دليل من سيكون من أجيال الأمة في مستقبلها، وقد تفتّنت لهذا بعض الأمم المالكة لزام غيرها فأخذت تعلم بناتها تعليماً يوافق غايتها، فمن الواجب علينا - ولنا كل الحق في المحافظة على ديننا ومقوماتنا - أن نعى بتعليم بناتنا تعليماً يحفظ علينا مستقبلنا، ويكون لنا الرجال العظماء والنساء العظيمات، وإلا فالمستقبل ليس كالماضي فقط بل شر منه لا قدر الله" (طالبي، ج4، ص201 و202).

وقال الإمام ابن باديس في شأن إصلاح المرأة: "إذا أردتم إصلاح المرأة الحقيقي فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها، فإن حجاب الجهل هو الذي أخرها، وأما حجاب الستر فإنه ما ضرّها في تقدّمها، فقد بلغت بنات بغداد، وبنات قرطبة، وبنات بجاية مكاناً في العلم وهن متحجّبات" (رحال، ص25).

2.1.3 الجامع والمدرسة: التعليم والمسجد صنوان من يوم ظهر الإسلام فما بنى النبى صلى الله عليه وسلم يوم استقرّ في دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه، ويجلس لتعليم أصحابه، فارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة، فكما أنه لا مسجد بدون صلاة، كذلك لا مسجد بدون علم، وحاجة الإسلام إليه كحاجته إلى الصلاة فلا إسلام بدون صلاة ولا إسلام بدون تعليم..

تصدّر الشيخ عبد الحميد بن باديس للتعليم حوالي ما بين سنتي 1913م و1914م، وانتظمت دروسه بصفة دائمة في الجامع الأخضر وسيدي قموش بقسنطينة، وعمره إذ ذاك دون الخامسة والعشرين. أقبل الطلبة من العمالات الثلاث يتزاحمون على دروس الإمام، وينهلون من معينها بكل جدّ واجتهاد، وقد أثّرت هذه الدروس تأثيرها العميق في أنحاء القطر، ممّا أدّى إلى انتشار الوعي الأدبي والفكري والإصلاحي (سلوادي، ص43 -44؛ رحال، ص26 -27).

كان الشيخ ابن باديس يدرك أنّ ما من أمة يمكن أن تنهض حقيقة إلا عن طريق التربية، وأنّ هذه التربية لا تكون مجدية إلا على أساس من تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، وقد كان له رأي خاص في تربية الناشئة الجزائرية، نظرا لظروف الجزائر الصعبة، وكان هذا الرأي يتلخص في أنّ تربية الناشئة في الجزائر تستند على فكرة عدم التوسّع في العلم، وإنّما تتمّ تربيتها على فكرة صحيحة، ويعني بها تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق ولو مع علم قليل.

"فكان الشيخ ابن باديس يؤثّر التربية على التعليم، ويحرص على غرس الفضائل في نفوس تلامذته قبل غرس القواعد الجافة في أدمغتهم، ويدربهم على أن ينهجوا نهجه في العمل للعروبة والإسلام... وكان من طريقته في التربية أن يرمي إلى تصحيح الفكر، وصل العقل، وترقية الروح، وتقوية الخلق، وتسديد الاتجاه في الحياة" (الإبراهيمي، 1985، ج4، ص338).

3.1.3 النادي: يعتبر الشيخ ابن باديس النوادي في مختلف المدن والقرى جنبا إلى جنب

مع المساجد والمدارس، لأن طبقات الأمة ثلاث:

- صغار تضمهم المدارس الابتدائية.
- كبار تجمعهم المساجد.
- شباب تتخطفهم الأزقة، وأماكن الخمر والفجور، وإذا أريد خدمتهم والقيام بالواجب الديني اتجأهم، لم نجدهم في المساجد، ولا في المدارس، لذلك لا وسيلة لتبليغهم دعوة العلم والدين إلا النوادي.

وقد كان الشيخ ابن باديس يوجه عنايته لتربية الشباب تربية خلقية، ودينية، ووطنية تجعلهم أحرص على مقومات شخصيتهم العربية الإسلامية من خلال النوادي الاجتماعية، ولذلك كان يعمل على تنظيمهم في منظمات كالشافة، والجمعيات الرياضية، بقصد ربطهم في شبكة محكمة من العلاقات الاجتماعية والدينية والوطنية من أجل تحقيق:

- حماية الشباب من عوامل الانحراف السياسي والاجتماعي والديني.
- استغلال طاقات الشباب في العمل الصالح النافع الذي يعود عليهم وعلى الأمة بالنفع والفائدة.

- تربية الشباب تربية إسلامية حتى لا يجرفهم تيار الفرنسة والتنصير والإدماج (رحال، ص35).

4.1.3 إنشاء الجرائد والصحف: أدرك ابن باديس ما للصحافة من أهمية في بناء نهضة

الجزائر، وإحياء مقوماتها، وبعث وطنيتها. فتوجه إليها في وقت مبكر من حياته الإصلاحية، وأعطاه أكثر من عشرين سنة من عمره.

— شارك في تأسيس جريدة "النجاح" عام 1919م.

— أسس جريدة "المنتقد" عام 1925م.

— ثم أنشأ في العام نفسه مجلة "الشهاب"، وشعارها "تستطيع الظروف أن تكتفينا ولا تستطيع بإذن الله إتلافنا".

— وأشرف على جرائد لجمعية العلماء منها: الجريدة الأسبوعية "السنة النبوية" (13/3/1933 أشهر 13 عدد)، وأسبوعية "الشرعية المحمدية" (1933/1 شهر ونصف 07 أعداد)، وأسبوعية "الصراط السوي" (1933 وجانفي 1934 /5 أشهر، 17 عدد).

— ثم تم تأسيس جريدة "البصائر" عام 1935م (سلوادي، ص52).

لقد أدرك - رحمه الله - خطر الصحافة ومدى أهميتها في تحرير العقول، وبث الشعور الإسلامي، وإيقاظ الأمة من غفلتها، ونشر الوعي السياسي والاجتماعي بين مختلف فئات المجتمع.. فاعتنى بها في نشاطه الدعوي، واتخذها منبرا لبث أفكاره الإصلاحية، وفضح من خلالها أساليب المستعمر، وكشف عن جرائمه التي يرتكبها في حق الشعب الجزائري.. قال متحدثاً عن صحيفة "المنتقد" بعد غلقها: "برزت جريدة المنتقد تحمل فكرة الإصلاح الديني، بتنزيه الإسلام عما أحدثه فيه المبتدعون وحرقة الجاهلون، وبيانه كما جاء في القرآن العظيم والسنة المطهرة، وعمل به السلف الصالح، معلنة أن المسلمين بذلك وحدة تصفو عقائدهم وتركوا نفوسهم وتستقيم أعمالهم، وينبعثون عن قوة وبصيرة في الأخذ بأسباب الحياة الراقية والمدنية الطاهرة، مشاركين أم الدنيا في خدمة الإنسانية وترقية الحضارة وتوسيع العمران.. برزت جريدة المنتقد تحمل هذا، وتلفت الجزائريين المسلمين إلى حقيقة وضعيتهم بين الأمم، بأنهم أمة لها قوميتها ولغتها ودينها وتاريخها، فهي لذلك أمة تامة الأممية، لا ينقصها شيء من مقومات الأمم" (مرتاض، د ت، ص98).

5.1.3 تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

في صباح يوم الثلاثاء 17 من ذي الحجة عام 1349هـ، الموافق لـ 05 ماي 1931م، اجتمع بنادي الترقى بعاصمة الجزائر اثنان وسبعون من علماء القطر

الجزائري، كما حضر الاجتماع طلبية العلم، ولقد كان الغرض من هذا الاجتماع هو تحقيق فكرة طالما فكّر فيها علماء القطر، وعلى رأسهم الشيخ ابن باديس، هي تأسيس "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، تحت شعار "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا". وقد حضر هذا التأسيس وشهده أغلب علماء الوطن ورجال الدين على اختلاف انتماءاتهم السياسية والطرفية والإصلاحية.

وإذا أردت أن تعرف هويتها ومهمتها وأسباب تأسيسها وأهدافها، فاقراً معي خطاب الشيخ ابن باديس لجماعة من رواد الجمعية - فيما بعد - في جلسة جمعتهم بهم في مكتبه الكائن بجوار مسجد الأربعين شريفا بقسنطينة، في عام 1928م.. افتتح جلسته بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله، ثم قال ما ملخصه: "أيها العلماء حيّاكم الله وأمدكم بعونه ونصره، وبعد: فلا شكّ أنّه أصبح من المعلوم لدى كلّ واحد أنّ العدو الاستعماريّ الصليبيّ قد اغتصب أرضنا، ودفع شعبنا إلى السّكن في الكهوف ومغاور الجبال، وأصبح شغله الشّاغل إضعاف الشّخصية الجزائرية سياسياً، في طريق القضاء على وجودها لتحلّ محلّها الشّخصية الفرنسية، من أجلّ هذا أسرع الاستعمار الخطي إلى حشد عشرات الآلاف من الرّجال والنّساء من مختلف الجنسيّات الأوروبيّة ومنحهم الجنسية الفرنسية ثمّ أسكنهم العمالات الثلاث: (الجزائر، قسنطينة، وهران) من التّراب الجزائريّ، وأقطعهم الأراضي الخصبة التي انتزعها من ملاكها، ثمّ عبّد لهم الطّرق وأعانهم بالأموال من أجلّ بناء المساكن وتفجير المياه، وواصل سيره هذا في مخطّطه، فأصدر القوانين المتعاقبة للقضاء على الشّعب الجزائريّ بسهولة ويسر، حتّى لا تقوم مقاومة من داخل البلاد ولا تُدّاع جرائم المستعمرين خارجها، وقد رأيت من المفيد أن أقدم إلى جمعكم المحترم بعضاً من هذه القوانين الخطيرة لتدرسوها وتتمعنوا النّظر فيها وفي نتائجها، ولتعرفوا ما يُبيّته لكم عدوكم، وإليكم بعض القوانين الصّادرة عن مجلس النّواب الفرنسي.. " (خير الدين، 1985، ج1، ص83) وبعد أن ذكر جملة من القوانين المجحفة في حقّ الشّعب الجزائريّ

قال:.. والآن أيها العلماء قد شاء الله أن يهيئكم ويخركم لهذا الظرف، لتتحملوا مسؤوليتكم بكل شجاعة وتضحية، وإنّ يومكم هذا لشبيه بذلك اليوم الذي وقف فيه البطل المجاهد طارق بن زياد خطيباً في جيش المجاهدين، على ربوة جبل طارق، بعد أن أحرق سفنهم التي حملتهم إلى الجهاد في الأندلس، وقال قولته المشهورة: أين المفر؟ البحر وراءكم والعدوّ أمامكم، وليس أمامكم غير الموت أو النصر..، وأنا أقول لكم: في هذا اليوم لم يبق لنا إلاّ أحد أمرين لا ثالث لهما، إمّا الموت والشهادة في سبيل الله، منتظرين النصر الذي وعد الله به عباده المؤمنين، أو الاستسلام ومدّ أيدينا إلى الأعداء، وإحناء رؤوسنا أمام الأعداء، فتكون النتيجة - لا قدر الله - أن يجري علينا ما جرى ببلاذ الأندلس وغيرها من البلاد الإسلامية، حين تركت الجهاد واستسلمت للأعداء"، أجابه العلماء الرّوّد: نحن مستعدّون للتّضحية في سبيل ديننا ووطننا والله معنا. قال ابن باديس: حيّاكم الله وأيدكم بنصره" (خير الدين، ج1، ص84 و85).

2.3 الممارسة السلوكية (الشخصية):

إذا كان الشيخ ابن باديس مجتهداً في عمله التنظيمي، مجدّاً في خلق آليات التّأطير ووسائل توصيل الرّسالة، سعيًا منه لصنع المواطن الصّالح، فإنّه كان على مستوى سلوكه وشخصيته المثال والقُدوة في الوطنية الصّادقة والمواطنة المستجيبة المخاصة. وحتى تتبيّن هذه الحقيقة أسوق لك مقتطفات من حياته وسلوكه وعمله، ولك أن تستوحي منها تلك القيم الرّفيعة والمبادئ السّامية، التي أصبحت عملة نادرة أيّامنا هذه، وقلّ أن تجد لها نظيراً.

1.2.3 قيمة الوطن ومبدأ المواطنة في ترك الهجرة - رغم وجود دواعيها - وإيثار

البقاء في الوطن:

قال ابن باديس: "أذكر أنّي لما زرت المدينة المنورة واتصلت فيها بشيخي الأستاذ "حمدان لونيسي" المهاجر الجزائريّ، وشيخي "حسين أحمد الهندي" أشار عليّ الأوّل بالهجرة إلى

المدينة المنورة، وقطع كلّ علاقة لي بالوطن، وأشار عليّ الثاني - وكان عالما حكيما - بالعودة إلى الوطن وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الجهد، فحقّق الله رأي الشيخ الثاني. ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته فنحن لا نهاجر، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية بجميع مدعّماتها في هذا الوطن" (ابن باديس، ج6، ص165).

2.2.3 همّ الوطن وهاجس الانتماء يلزم المواطن الصادق في حلّه وترحاله، لأنّه أصدق تعبير عن قيم المواطنة الحقّة:

يصوّر لنا الشيخ البشير الإبراهيمي لقاءه بابن باديس في البقاع المقدّسة فيقول: ".. كان من تدابير الأقدار الإلهية للجزائر، ومن مخبّات الغيوب لها، أن يرد عليّ بعد استقراره بالمدينة المنورة سنة وبضعة أشهر، أخي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك الشيخ عبد الحميد بن باديس، أعلم علماء الشمال الإفريقي - ولا أغالي - وباني النهضات العلميّة والأدبيّة والاجتماعيّة والسياسيّة للجزائر.. كنّا نوّدّي صلاة فريضة العشاء الأخيرة كلّ ليلة في المسجد النبوي، ونخرج إلى منزلي فنسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل، حين يفتح المسجد فندخل مع أوّل داخلٍ لصلاة الصبح، ثمّ نفترق إلى اللّيلة الثانية إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة المنورة، كانت هذه الأسفار المتواصلة كلّها تدابير للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصّلة لتلك النهضات الشاملة، التي كانت كلّها صورا ذهنية تتراءى في مخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حقّقها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أنّ تلك اللّيلي من عام 1913م هي التي وُضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلّا في عام 1931م" (الإبراهيمي، 1997، ج5، ص278).

3.2.3 الاجتهاد في العمل، والتفاني في العطاء والبذل، والحرص على النفع، من ميزات

الوطنيين المخلصين، والشيخ ابن باديس واحد منهم:

يصف أحد تلاميذه هذه الحقيقة فيه فيقول: ومما يمتاز به الشيخ ابن باديس ذلكم الحرص الشديد على إفادة طلابه، وعدم التهاون في مواصلة الدرس مهما كلفه الأمر من عناء ومشقة، فقد يستغرق عمله جميع النهار وجزءا من الليل.. يشرع في الدرس الأول بعد صلاة الصبح مباشرة، ويستمر إلى منتصف النهار، ثم يستأنف العمل بعد صلاة الظهر إلى أن يحين المغرب، فينصرف بعد صلاة المغرب إلى درس التفسير، وينتهي منه عند صلاة العشاء، وهكذا كل يوم ما عدا يوم الجمعة فإنه يخصصه لزيارة بعض المدن للوعظ والإرشاد، والإشراف على حركة التعليم، يسافر ليلة الجمعة ويعود ليلة السبت حتى يستأنف التدريس في الصباح (بن عتيق، 2017؛ رحال، ص29).

4.2.3 الإنتاج الفكري عند المواطن الصادق ينبغي أن يخدم موطنه، ويصب في قوة

قيمتها ومقوماتها، حتى الفتوى الشرعية تغدو من أمضى الأسلحة في هذا الباب:

وفتوى الشيخ ابن باديس بتحريم التجنيس لها مثل هذه القيمة الوطنية حيث يقول فيها: "التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة، ومن رفض حكما واحداً من أحكام الشريعة عدّ مرتدّاً بالإجماع، فالتجنس مرتدّ بالإجماع" (ابن باديس، ج3، ص308 و309).

5.2.3 رفض الاستكانة للظلم، وازدراء التهديد والوعيد، مع الجرأة في الحق، وعدم

التواني في نصره الوطن، من المواقف الوطنية المشهودة، التي تحسب لصاحبها

وترفع من شأنه:

سافر الشيخ ابن باديس مع لجنة وطنية إلى باريس سنة 1936م، لطلب تنفيذ مرسوم 27 سبتمبر 1907م، القاضي بفصل الدين عن الدولة، وبعض المطالب الأخرى التي حددها المؤتمر الإسلامي، جرت مناقشات في هذا الغرض، هدّد خلالها رئيس الحكومة -

دلاديه، Daladier - عبد الحميد بقوله: لدى فرنسا مدافع طويلة.. لكنّ الشيخ ابن باديس لم يسكت أمام هذا التهديد، وهو في قلب فرنسا، وفي مجلس رئيس حكومتها، بل ردّ عليه في شجاعة المواطن المؤمن القويّ الواثق من نفسه قائلاً: توجد لدينا مدافع أطول.. فتساءل عنها رئيس الحكومة مندهشاً، فأجاب ابن باديس: إنّها مدافع الله (حسن سلوادي، ص54).

6.2.3 حرية الوطن إذا استدعت بذل النفس بإقامة ثورة؛ التزام يعيه المواطن الحقّ الوفيّ بقيم مواطنته:

لما لاحت نذر الحرب العالمية الثانية سنة 1939م، سعت فرنسا إلى كسب تأييد مختلف الجماعات السياسية في الجزائر، فأبدى الخاضعون لسلطانها تأييدهم ومساندتهم لها، ولما عُرض هذا الأمر على جمعية العلماء رفضته بأغلبية أعضائها، عندها قال ابن باديس: لو كانت الأغلبية في جانب موالاته فرنسا، لاستقلت من رئاسة جمعية العلماء، وأنّه لن يوقع على برقية التأييد ولو قطعوا رأسه.. وكان ابن باديس يرى ضرورة العمل من أجل الاستقلال والتّضحية في سبيل ذلك، وأنّ الحرّية لا تُعطى ولا توهب، بل سجّل التاريخ أنّها تؤخذ وتُنزَع، وفي هذا الصّد يقول: "قلّب صفحات التاريخ العالمي، وانظر في ذلك السّجل الأمين، هل تجد أمّة غلبت على أمرها، ونكبت بالاحتلال، ورُزئت في الاستقلال، ثمّ نالت حرّيتها منحةً من الغاصب، وتنازلاً من المستبدّ، ومنّةً من المستعبد؟ اللهم كلا.. فما عهدنا الحرّية تُعطى، إنّما عهدنا الحرّية تُؤخذ.. وما عهدنا الاستقلال يُمنح ويُوهب، إنّما علمنا الاستقلال يُنال بالجهاد والاستماتة والتّضحية.. وما رأينا التاريخ يُسجّل بين دفّتي حوادثه خيبةً للمجاهد، إنّما رأيناه يسجّل خيبةً للمستجدي" (سيد بن حسين العفاني، دت، ج5، ص326). وروي أنّه قبيل وفاته -رحمه الله- صرّح في اجتماع خاصّ قائلاً: (والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمّة الجزائرية يوافقونني على إعلان الثّورة لأعلنتها) (سيد بن حسين العفاني، ج5، ص327 و328 و329).

خاتمة:

كانت هذه بعض ملامح هاجس الانتماء وحضور الهوية وبروز معاني وقيم "الوطنية والمواطنة" في فكر وحياة ذاك الرجل الأمة "الشيخ عبد الحميد بن باديس" رحمه الله تعالى رحمة واسعة، اللهم اجزه عن هذا الوطن وأهله خير ما جازيت مصلحاً عن أمته.

كان ابن باديس وطنياً صادقاً ومواطناً مخلصاً، تمثلت فيه كل معاني الوطنية، ولاحت في حياته أسمى معاني المواطنة، وغدت الوطنية والمواطنة سلوكاً فطرياً وهماً استراتيجياً؛ وهو من عاش حقبةً هي من أسوأ وأحلك حقبات هذا الوطن العزيز، فأين أجيال الحرية والاستقلال اليوم من هذه القيم العليا والمثل السامية؟

ها نحن جيل القرن الواحد والعشرين، نعيش في نعمةٍ ناضل من أجلها ابن باديس، ودفع لأجلها ما يملك من جهد ووقت ومال وصحة.. فهل حافظنا عليها؟ هل وعينا ما درجنا عليه من تسمية يوم وفاة ابن باديس بيوم العلم؛ إشارة إلى أن العلماء لا يموتون، وأن رسالاتهم تبقى خالدة خلود آثارهم، ولأنهم ما حيوا لأنفسهم، وإنما لأوطانهم ومقوماتها؟ أم أننا فرطنا في هذه الرسالة، وتخلينا عن تلك الأمانة!!

إننا نرى هذه الأيام شباباً تتكرر لعقيدته، واستهزأ بلغته، واحتقر وطنه؛ شباباً استهان بالعلم وأعرض عن طلبه، وداس الفضيلة بأقدامه واعتبرها تأخراً وانحطاطاً. وهذا - في الحقيقة - غاية ما أراده أعداء هذه الأمة ومبغضوا هذا الوطن، من خلال ما يبتئونه من سموم عبر تكنولوجياتهم الحديثة: الإنترنت والبارابول ووسائل التواصل الاجتماعي.. وغيرها من الوسائل والأهداف التي ينبغي لشبابنا الناصع أن يتقطن لها. لقد أرادوا خلق شباب لا يهتم ببناء مقوماته الشخصية؛ شباب يأنف من دينه وينفر من لغته ويلعن حتى وطنه. أرادوا خلق شباب يُقاد من غرائزه الجنسية، ويُغرى بعبادة الحياة الدنيا، ويُنسَى ربه وآخرته؛ شباب شعاره المادّة والكسب المادي؛ مهما كان وكيفما كان مصدره، وبأي

طريقة كان ولو بتعريض الحياة لخطر الموت بالهجرة في قوارب الموت؟؟!! وكأنّ الحياة مادّة فقط؛ بل وكأنّ الحياة للنفس وحسب!

وبذلك أوجدوا بونا شاسعا وهوة كبيرة بين الشباب وطلب العلم، بعدما زهّدوه فيه؛ شباب لا يهتمّ أن يعرف دينه، لا يهتمّ أن يعرف ما يصلح مآله ومعاشه، لا يهتمّ أن يهّان وطنه، أو تُداس كرامته، أو يُطعن في هويّته ومقوماتهن كلّ ذلك يصبح عنده غير مهمّ. أرادوا خلق شباب فارغ، يسهل اصطياده - تنصيراً، وعبثيّة، وإرهاباً - حتّى وإن استعصى فإنّه لا يُعوّل عليه؛ فلا تُبنى به حضارة، ولا تُقام عليه نهضة، ولا يُصنع به مجد.

في الواقع لا نريد لشبابنا أن يقع في شرك هذا الفخ؛ لا ينبغي لك - أيها الشاب - أن يكون قدوتك من لا هدف لهم في الحياة إلّا التّسكّع واللّهو واللّهث وراء الدنيا. فهؤلاء أكثرهم أهدافه مادّية بسيطة، وأفكاره ساذجة، وطموحاته محدودة، وقلّ منهم من يفكر في الجنّة! ولذلك فقليل منهم من يفكر في عزّ وطنه ونصرة دينه وإظهار لغته. نريد أن يكون قدوتك ابن باديس؛ هذا الرجل الأمّة، وغيره كثير من بُناة هذا الوطن الكريم وحُماة مقوماته.

قائمة المراجع

حسن عبد الرحمن سلوادي، 1984م، عبد الحميد بن باديس مفسراً، المؤسسة الوطنية للكتاب.
راشد احمد بن شبيب، 20/04/2017، الوطنية والمواطنة بين النظرية والتطبيق، مجلة البيان الالكترونية، استرجعت بتاريخ: فيفري 15، 2022،

الرابط: <https://www.albayan.ae/opinions/2007-04-20-1.164970>

الزبير رحال، د ت، الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية، دار الهدى.
سيد بن حسين العفاني، د ت، زهر النساتين من مواقف العلماء والربانيين (الجزء الخامس)، دار العفاني.
عبد الحميد بن باديس، 1405هـ/1984م، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (الجزء الثالث)، ط1، دار البعث.

عبد الحميد بن باديس، 1406هـ/1985م، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (الجزء الرابع)، ط1، دار البعث.

- عبد الحميد بن باديس، 1415هـ/1994م، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (الجزء السادس)، ط1، دار البعث.
- عبد الحميد بن باديس، 1402هـ/1983م، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ط1، دار البعث.
- عبد الحميد بن باديس، 1403هـ/1983م، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ط1، دار البعث.
- عبد الكريم غلاب، 1998م، مفهوم الوطنية، سلسلة الثقافة القومية، مركز دراسات الوحدة العربية.
- عمار طالبي، 1388هـ/1968م، ابن باديس حياته وآثاره، دار اليقظة العربية.
- عبد الملك مرتاض، 1985م، نهضة الأدب العربي المعاصر 1925 - 1954، ط2، الشبكة الوطنية للنشر والتوزيع.
- محمد البشير الإبراهيمي، 1985م، آثار محمد البشير الإبراهيمي (الجزء الرابع)، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- محمد البشير الإبراهيمي، 1997م، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (الجزء الخامس)، ط1، دار الغرب الإسلامي.
- محمد خير الدين، د ت، مذكرات الشيخ محمد خير الدين، مطبعة دحلب.
- محمد الصالح بن عتيق، 10/09/2017، طريقة ابن باديس في التعليم، الموقع الإلكتروني عبد الحميد رائد النهضة العلمية والفكرية في الجزائر 1889-1940، استرجعت بتاريخ: 25 فيفري 2022، رابط الموقع: <https://binbadis.net/archives/2728>.
- محمد عمار، 1998، الإسلام والامن الاجتماعي، دار الشروق.
- محمد قطب، 1403هـ، مذاهب فكرية معاصرة، ط1، دار الشروق.
- محمد ناصر، 2007م، الصحف العربية الجزائرية من 1874 - 1954، ط3، دار الغرب الإسلامي.
- محمود خليل أبو دف، 2004هـ، تربية المواطنة من منظور إسلامي، مجلة كلية التربية، جامعة الأزهر، عدد إبريل 2004م.